قرر الكاتب الأمريكى جون جريفن أن يكتب عن اضطهاد الزنوج فى أمريكا ، لكنه أيقن أنه لن يوفق فى مهمته ما لم يكن زنجيا يحس باحساسات الزنوج أنفسهم . فقرر أن يكون زنجيا .

وباستعمال بعض العقاقير وتعريض جسده للأشعة فوق البنفسجية تحت اشراف أخصائيين ، أمكنه أن يغير لون بشرته لفترة مؤقتة الى اللون الأسود ، ثم رحل الى الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية حيث التفرقة العنصرية على أشدها ... وقد سجل فى هذا الكتاب يومياته خلال مغامرته المثيرة التى استغرقت ستة أسابيع .. فجاء الكتاب بمثابة تقرير صارخ عن اضطهاد الملونين فى الولايات المتحدة الأمريكية .. هز ضمير الراى العام الأمريكى كما هز ضمير العالم الحر بأكمله . وهذا عرض ليومياته فى مغامرته المثيرة .

٢٨ أكتوبر ١٩٥٩ :

الح على هذا السؤال سنوات عديدة ؟ الا أن الحاحه على هذه الليلة لهو أكبر مما احتمل : لو قدر لرجل أبيض أن يتحول الى زنجى أسود يعيش فى أقصى الجنوب من الولايات المتحدة الامريكية فما الذى سيطرأ على نظام حياته ، وما هى صنوف العذاب التى سيتعرض لها بسبب بشرته الملونه ؟

ولقد ازداد الحاح هذا السؤال على اليوم بسبب تقرير فرغت من مطالعته ، يشير الى ازدياد نسبة حوادث الانتحار بين زنوج الجنوب ، فهذا ليس معناه أن هؤلاء الزنوج يقتلون انفسهم بأيديهم ، بل هو فى الحقيقة يعنى أنهم قد وصلوا الى مرحلة من اليأس تستوى فيها الحياة مع الموت .

٢ نوفمبر ١٩٥٩ :

وصلت نيو أورليانز بالطائرة أمس وقت الغروب ، ونزلت فى ضيافة صديق بالمدينة وقصدت صباح اليوم الى احد أطباء الجلد وشرحت له كيف أننى قررت أن أكون زنجيا ، وسألته عن أحسن وسيلة لتغيير لون بشرتى لفترة مؤقتة الى اللون الأسود ، فقام باجراء مشاورات مع بعض اصدقائه من الأطباء ، واتفقوا على أن أحسن وسيلة لذلك هى تعاطى بعض الأقراص عن طريق الفم مع تعريض الجسم للأشعة فوق البنفسجية .

وتناولت تذكرة الدواء وعدت الى منزل صديقى فى نيو أورليانز حيث ابتدأت فى

تعاطى اقراص التلوين وحيث بدأت بعد ذلك بساعتين فى تعريض جسدى للأشعة فوق البنفسجية بواسطة مصباح شمسى معد لهذا الغرض .. وكنت قد اتفقت مع صاحبى على أنه ينبغى الا يناقشنى فى مشروعى على الاطلاق ، كما أنه عليه الا يندهش اذا اختفيت من البيت فجأة دون سابق انذار ، فقد آثرت الا اقحمه بتاتا فى مغامرتى حتى لا يتعرض لأذى المتعصبين البيض ، اذا عرفوا عنه كشف الستار عن مغامرتى انه قد آوانى او ساعدنى على تنفيذ أغراضى .

٦ نوفمبر ١٩٥٩ :

مضيت اربعة أيام مترددا على عيادة الطبيب او راقدا فى حجرتى بمنزل صديقى تحت الأشعة فوق البنفسجية .. ويبدو ان الطبيب قد تنبه أخيرا وبعد فوات الأوان لخطورة المشروع الذى نويت تنفيذه . بل انه بدا يحس أخيرا بوخز الضمير وثقل مسئوليته بالنسبة للمشاكل التى سأتعرض لها وكيف انه ساعد على الالقاء بى فى موارد التهلكة ، فأخذ ينصحنى بأن أعدل عن المشروع ، لكنه اذ لمس اصرارى على عدم التراجع ، لم يجد مفرا من التسليم .

وقد كنت فى أوقات فراغى من زيارات الطبيب وجلسات الأشعة اخرج لاكتشاف شوارع المدينة ، فلفتت نظرى منصة لتلميع الأحذية بجوار السوق الفرنسى فى المدينة ، وكان يجلس الى هذه المنصة رجل ضخم الجثة الا انه بادى الذكاء لبق الحديث ، فقد احدى ساقيه فى الحرب ، فقلت فى نفسى لعلنى أجد من هذا الرجل نفعا فى الدخول الى العالم الآخر بعد الانتهاء من صباغة جلدى ، فعرفته بنفسى ككاتب يتجول فى أعماق الجنوب لدراسة الأحوال المعيشية والاجتماعية ، واخفيت عنه الغرض الحقيقى لرحلتى الى الجنوب . أما هو فقد كان يدعى سترلنج وليامز ويعمل على منصة تلميع الأحذية بالاشتراك مع زميل آخر .

٧ نوفمبر ١٩٥٩ :

اصبحت اسود فى لون الفحم ولكن لما كان شعرى ناعما غير مفلفل شأن شعر الزنوج ، فقد نصحنى الطبيب بحلاقة راسى بشفرة الحلاقة ، ثم قال لى بعد أن كرر تحذيراته لى وبعد أن اكد على الاتصال به اذا تعرضت لأية متاعب :

انت الآن فى طريقك الى الجحيم .

ولشد ما كانت عملية التحول شاملة ومثيرة .. فبينما كنت أتوقع أن ارى نفسى فى هيئة رجل متنكر اذا بى ارانى قد سجنت جسدى فى جلد رجل غريب عنى ، بل اننى احسست بأنى اصبحت رجلين فى جلد رجل واحد .

لقد عبثت بلغز الوجود وفقدت الشعور بكيانى الى درجة تدمرنى وتجعلنى احس بأننى انا الذى كنت حقيقة مرئية بالأمس قد اصبحت الآن انسانا ليس مرئيا !!

وبعد فترة من الرهبة والشعور بالوحدة القاتلة ، خرجت من بيت صديقى تحت جنح الظلام ، وقصدت مباشرة الى محطة السيارات العامة ثم جاءت السيارة

فركبتها وجلست فى المؤخرة حيث يجلس الزنوج وهناك لحظنى بعض الركاب الملونين بعيونهم دون ادنى شبهة أو ريبة . فأيقنت اننى قد أتممت عملية التغيير الى اللون الأسود بنجاح .. وسألت احدهم على مكان استطيع ان اقضى فيه ليلتى فدلنى على فندق .. ذهبت اليه ودلنى صاحبه على حجرتى ، فراعنى أنها عبارة عن جحر لا نافذة له ، فارتددت عنها مذعورا أنكر ما أرى ولكننى سرعان ما أدركت أنه قد يتعذر على كزنجى ان احصل على غرفه أفضل .. فقضيت ليلتى فى هذا الجحر الصندوقى الذى لا نافذة له مؤرقا أشعر بالاختناق .

٨ نوفمبر ١٩٥٩ :

ما ان صحوت على ضوء النهار يتلصص من فرجة الباب فى حجرتى الصندوقية عديمة النوافذ حتى ارتديت ملابسى واخذت حقيبتى وخرجت الى الشارع أبحث عن طعام .. وسرت فى الشوارع بين ضجيج الزنوج وصيحاتهم وشتائمهم الفاحشة التى يتبادلونها على قارعة الطريق .. تمتلىء خياشيمى برائحة البيرة المثلجة والنبيذ المعتق واللحم البشرى الذى ينصهر تحت وهج أشعة الشمس .. ومناظر الزنوج سكارى يترنحون من شدة السكر تقابلنى فى كل مكان .. ، ووقفت عند قهوة متواضعة جدا ، وتناولت افطارا هزيلا لكنه باهظ الثمن . وسألت عن فندق نظيف للمبيت فأرشدونى الى فندق جمعية الشبان المسيحية ، ثم سألت عن كنيسة ومكان عام لقضاء الحاجة ، فاهتز المسئول من شدة الضحك وقال :

ـ عليك أن تذهب للكنيسة للصلاة من أجل العثور على مكان لقضاء حاجتك . وعليك أن تعرف جيدا أماكن وجود محلات الأدب ، والا فالأفضل لك الا تغادر بيتك ، لأنك قد تضطر فى بعض الأحيان الى المشى مسيرة نصف شوارع المدينة من اجل العثور على مكان تقضى فيه حاجتك ..

ولما كان محرما على كرجل اسود ان أقصد الى مقاهى البيض او مطاعمهم او المحلات العامة الخاصة بهم فقد وطنت نفسى على التزام نصيحة الرجل الزنجى الذى تطوع بارشادى الى ما يجب ان افعله .

واخذت سيارة عامة الى منصة تلميع الأحذية فى الحى الفرنسى الذى كنت قد اعتدت زيارته عندما كنت أبيض اللون ، ولكن صديقى سترلنج وليامز لم يتعرف على .. وعندما ذكرته بنفسى وبحذائى الذى اعتاد تلميعه قفز صائحا من شدة الدهشة:

ـ .. كيف لم اكتشف ذلك .. ولكن حدثنى لم وكيف فعلت ما فعلت ؟

فشرحت له كل شىء باختصار ، واتفقنا على مراعاة الكتمان ، وبدأ هو يغمرنى بنصائحه ، وان كان لم يخف قلقه على وخوفه من ان يتلصص على سرنا انسان .. وعندما جاء شريكه « جو » اتفق ثلاثتنا على ان أشترك معهم فى الجلوس الى المنصة أساعدهم فى تلميع الأحذية حتى أوفق الى عمل ، حيث ان هذا كان من ضمن برنامجى فى المغامرة .

واقبل علينا زبائن من الأمريكيين البيض فأدهشنى تبسطهم فى الحديث معنا وخاصة فى شئون المتع الجنسية وفسر استرلنج هذا قائلا :

ـ انهم كذلك ياصديقى .. فى غاية الديمقراطية ، عندما تكون غايتهم البحث عن فتاة زنجية .

وقام « جـو » بأعداد طعام الغذاء ، وفى المساء اتجهت الى فندق جمعية الشبان المسيحية ، لكننى لم اجد مكانا ، ودلنى موظف الفندق على حجرة لدى سيدة تؤجر بعض حجرات بيتها للمبيت ، ودفعت أجرة المبيت مقدما حيث تبين ان هذا شرط اساسى بالنسبة لأى زنجى ، ونزلت الى مقهى فندق جمعية الشبان المسيحية لأتناول بعض الطعام فوجدت نخبة من الزنوج المثقفين قد التفوا على شكل ندوة فجلست اليهم . وتحدثنا عن مشكلة التفرقة العنصرية ، وعرفت منهم كيف ان المشكلة ليست بالجسامة التى هى عليها فى سائر ولايات الجنوب نظرا لأن نيو اورليانز مدينة ذات طابع دولى ، الى حد ما ، ومليئة بالكاثوليكيين الذين لا يخشون سطوة المتعصبين اذا هم اعتدلوا بعض الشىء فى معاملة الزنوج .

وفى الصباح خرجت أبحث عن طعام وعند ناصية من الطريق لمحنى غلامان مراهقان ابيضان ، فنهض احدهما وتبعنى واخذ يستوقفنى ويهددنى وينعتنى بأقبح الألفاظ واحسست بطعم الخوف كمذاق الملح فى حلقى ، ولما طال تتبعه لى تذكرت اننى تمرنت يوما ما على المصارعة اليابانية ، فوقفت عند زاوية غير ملحوظة من الطريق ، وتحديت الغلام ان يتبعنى الى مخبأى لألقنه درسا لا ينساه . . لكن الغلام لم يتبعنى بل مضى من طريق آخر .. فواصلت سيرى حتى قابلتنى كنيسة كاثوليكية فجلست على أول درج من درجات سلمها واحتملت رأسى بين يدى أشكو ضعفى وهوان أمرى بسبب لونى .

١٤ نوفمبر ١٩٥٩ :

اسبوع من المشى المستمر استهلكته تقريبا فى البحث عن عمل ككاتب على الآلة او كاتب حسابات لكن دون جدوى .. كنت مدفوعا الى حب المعرفة .. **ترى أى نوع من العمل يستطيع ان يحصل عليه زنجى متعلم حسن الهندام ؟** ولقد كانت الاجابة على هذا السؤال مرة لا تحتمل .. فليس من فرصة لعمل نظيف يتكافأ مع تعليم الزنجى او خبراته .. ولم اجد مفرا فى كل مرة تكل فيها قدماى من عناء

البحث الا العودة الى منصة تلميع الأحذية .. فهذا هو نوع العمل الذى يستطيع أن يؤديه الرجل الزنجى فى الجنوب متعلما كان أم غير متعلم .

واشتهيت فى تجوالى بحثا عن عمل ، الى الأكل فى مطعم نظيف ، لكننى أحجمت عن المحاولة لا لشىء الا لأنه قد حدث أن وقفت مرة أسترق النظر الى واجهة أحد هذه المطاعم القاصرة على البيض ، فقابلتنى نظـــرات الامتعاض والتأفف من كل اتجاه ، ثم اذا بى أجد زنجيا يربت على كتفى ويقول :

ــ تستطيع ان تعمر الى ما شاء الله .. لكنك ابدا لن تجد الفرصـــة لدخول مطعم كهذا الا من الباب الخلفى كعامل فى المطبخ ..

وحتى الحدائق العامة قد حيل بيننا وبينها سواء منها ما كان مسموحا لنا بارتيادها او ممنوعا ، فقد تصادف فى تجوالى أن مررت بحديقة عامة فى منتصف أورليانز ، وكانت ساقاى تتهاديان من شدة التعب فانتحيت جانبا من الحديقة وجلست أستريح ، لكن رجلا أبيض القى الى من طرف لسانه بهذا الأمر :

ــ خير لك ان تبحث عن مكان آخر ..

وعندما رويت الحادثة لبعض الرفاق الزنوج فى مقهى جمعية الشبان المسيحية ضربوا كفا على كف وقالوا ان هذا المكان غير ممنوع علينا ، وكل ما هناك أن ذلك الرجل قد تأذى من شكلى فأمرنى بمغادرة المكان .

وثمة داهية اخرى لاحقتنى عند ركوب السيارات العامة ، ذلك أن السائق كان لا يسمح لى أو لغيرى من الزنوج بالنزول فى محطة وصولنا،الا اذا تصادف نزول أحد من البيض فى نفس المحطة . ورغم ذلك فقد قيل لى ان كل هذه الصنوف من العذاب محتملة بالقياس الى ما يلقاه الزنوج فى المسيسبى من ويلات .. فقررت أن اذهب الى هناك .. وعندما صارحت زميلى فى العمل على منصة تلميع الأحـذية بنيتى صرخا فى وجهى وطلبا منى الا أفعل وقال سترلنج :

ــ انهم يعاملوننا هناك معاملة الكلاب !

فقلت له :

ــ ان ذهابى الى هناك يعتبر جزء هاما من عملى .

ولم يكن لدى عند ذاك ما يكفينى من النقود فحاولت صرف شيكات سياحية من المحلات العامة ، كما هو متبع دائما فى غير أوقات عمل البنوك فقد كان اليوم يوم السبت بعد الظهر والبنوك لا تعمل فى هذا الوقت ، لكن فتيات المحلات الرقيقات الحسناوات اللاتى كن يعاملننى بكل لطف ورقة عند ذهابى للشراء ، قابلننى هذه المرة بالامتعاض والتأفف ورفضن صرف اى شيك سياحى لى ، بل وعاملتنى فتيات البيع فى كل المحلات التى قصدتها كما لو كنت قد سرقت هذه الشيكات أو حصلت عليها من طريق غير شريف .

وقررت ان ابقى بنيو اورليانز الى يوم الاثنين حتى استطيع أن اصرف بعض النقود من احدى البنوك فلم يكن ما معى يكفينى للذهاب الى المسيسبى ، لكننى فجأة وجدت مكتبة كاثوليكية مفتوحة ، فدلفت اليها وانا أعلم تسامح الكاثوليكيين فى معاملة الزنوج وادهشنى أن فتاة المكتبة صرفت الشيك بكل سرور ، فاشتريت بعض الكتب وانصرفت .

واتجهت الى محطة السيارات المتجهة الى المسيسبى واخرجت ورقة من فئة العشرة دولارات الى فتاة الشباك وطلبت منها تذكرة السفر ، لكنها قابلتنى بوقاحة شديدة وعيناها تقدح بالشرر والكراهية المقيتة ، ورفضت اعطائى التذكرة لأنه ليس لديها فكة عشرة دولارات .. وكانت النظرة أقسى من أن تحتمل ، عرفت فيها معنى ما يسميه الزنوج بنظرة الكراهية .. لكننى تعمدت الالحـــاح عليها فى أدب بينما شددت هى من نظرة الكراهية بدرجة تدعو الى التسلية .. وأمام الحاحى ، لم تجد مفرا من قبول ورقة النقد ، لكنها القت بالتذكرة فى وجهى ورمت بباقى النقود على طول ذراعها فانتشرت كلها على الأرض فانحنيت التقطها وتساءلت فى نفسى ترى ماذا يكون شعورها لو عرفت أن هذا الرجل الذى تصرفت أمامه بوقاحة شديدة لا تليق بسيدة محترمة ما هو الا رجل أبيض ؟ .

وجاءت السيارة وركبت فى المؤخرة الى جانب اخوانى من الزنوج ، ورغم ان التفرقة العنصرية فى السيارات العامة ممنوعة الا انه ما من زنجى كان يجرؤ على الجلوس فى المقدمة أو الى جوار رجل ابيض . وقد لاحظت انه كلما اقتربنا من ولاية المسيسيبى كلما ازداد التوتر بين الزنوج الراكبين فى السيارة ، وقد زاد هـــذا التوتر عندما أعلن السائق فى احدى المحطات أن السيارة ستتوقف لمدة عشرة دقائق يستطيع الركاب فيها أن يقصدوا الى الاستراحة لقضاء حاجتهم أو تمشية عضلاتهم التى تسمرت من طول الجلوس .. وفتح الباب وابتدأ النزول وعندما جاء دورنا نحن الزنوج ، قصف الباب فى وجوهنا ولم يسمح لأحد منا على الاطلاق بالنزول ، وجعل فى أذنيه سدا ، فلم ينصت لتوسلاتنا اليه باعطائنا حق النزول . وأمام يأس هذه المحاولات رجعنا جميعا خائبين الى اماكننا ، لكن واحدا منا نهض ثانية وقال:

ـ حسنا .. اذا كنت لا أستطيع الذهاب الى الاستراحة ، فلا حرج على أن اقضى حاجتى هنا .

وذهب الى مؤخرة السيارة وفعل ما ظن انه الصواب وصاح آخر ، لنقم جميعا ولنفعل مثلما فعل لكن كثرة الحاضرين استنكروا ان يتم ذلك ، مخافة أن يستغل دعاة التفرقة العنصرية هذه الحادثة للتشهير بنا .

وواصلنا المسير بعد ذلك ، فوصلنا هاتيسبرج احدى مدن المسيسيبى مع مطلع الليـــل ، ولحظ بعض الرفاق من الزنوج اننى أزور المسيسيبى لأول مرة فتفضل على بسيل من النصائح والتحذيرات : « **اياك أن تنظر الى امرأة بيضاء . اياك أن**

تلتفت يمنة أو يسرة فى سيرك . اذا تبعك غلام من غلمان البيض فواصل سيرك دون ان تلتفت الى الوراء . والا تعرضت لأذاهم . بل وربما سلبوك ما معك من نقود » .
وهكذا .. سيل من النصائح جعلنى أشعر بالكآبة والوحدة القاتلة تعتصر قلبى . ومشيت فى شارع موبايل ممتلئا بهذه النصائح . وفجأة مرت بى سيارة مسرعة تحمل حفنة من الرجال والغلمان البيض ، ما ان رأونى حتى صاحوا بى بأقذع الألفاظ وصوبوا الى راسى قذيفة من قشر الموالح لكنها اخطأتنى لحسن الحظ وانفجرت على المبنى المواجه لهم .

ولم أوفق فى العثور على مكان للمبيت الا بعد جهد جهيد ، ومحاولة مخلصة بذلها بعض رفاق السيارة اثمرت فى النهاية عن حجرة فوق سطح كوخ خشبى ، لم تعرف معنى للطلاء منذ وجدت ، تكاد تتداعى تحت وقع أقدامى ، فارتضيت المبيت فيها مكرها ، بعد ان أكد الرفاق الزنوج انها مأمونة . واضات نور الحجرة فرايت فى مرآة مشروخة على أحد جدرانها صورة الزنجى القح الذى هو أنا ، يبحلق فى من خلال المرآة المغبشة ، فأحسست بأننى فى جهنم . بل فى أسوأ من جهنم ، اذ ان جهنم لا يمكن ان تكون اكثر وحدة او افلاسا من أى أمثل هذا المكان .

وجاءت الى أصوات الموسيقى صارخة صاخبة تصاحبها ضحكات الزنوج عاتية عاصفة فعرفت كيف أنه ينبغى على ضحكاتهم أن تتسع حتى تتحول الى قهقهات معربدة ، كى لا تتحول الى نحيب ، حيث لا ينبغى عليهم الا ينتحبوا لأنهم لو انتحبوا لأدركوا الحقيقة ، ولو ادركوها لأسلمتهم الى اليأس .

وفى الصباح احسست أنه لن يمكننى أن أعيش فى هذه الحجرة يوما آخر .. كما انه من المستحيل أن أمشى مرة أخرى فى شوارع هاتيسبرج وتذكرت أنى أعرف صديقا صحفيا فى هاتيسبرج ، ففكرت فى الالتجاء اليه خاصة وانه ممن يناهضون التفرقة العنصرية .. فاتصلت به وسرعان ما جاء الى نجدتى واخذنى الى بيته .

١٩ نوفمبر سنة ١٩٥٩ :

عاد بى صديقى الصحفى بسيارته الخاصة من هاتيسبرج الى نيواورليانز ، وتركنى فى شارع القناة حيث قصدت من فورى الى مطعم للملونين تناولت فيه وجبة من الفاصوليا والأرز ، ثم ذهبت الى محطة السيارات العامة قاصدا هذه المرة الى مدينة بيلوكسى فى ولاية المسيسبى ، وكان هناك فسحة من الوقت على موعد الرحيل ، فقصدت الى غرفة الاستراحة لقضاء الحاجة ، ولفت نظرى وجود بقايا رغيف على الأرض الى جوار مقعد الفائط ، فعجبت لهذا الزنجى الذى قصد لهذا المكان فتناول وجبته من هذا الرغيف لكن الذى شد اهتمامى اكثر من ذلك كان تلك اللافتة المثبتة خلف الباب والتى تتحدث عن قائمة أسعار تقديم الفتيات

الزنجيات للمتعة الجنسية للرجل الأبيض والتى تتفاوت صعودا وهبوطا حسب عمر الفتاة ، وتبلغ اقصاها اذا جمعت البنت بين صفتى البكارة وصغر السن .

... وقد علمتنى مثل هذه التجربة أن أشعر بصفتى زنجيا بالاستعلاء على الرجل الابيض ، ذلك الرجل الذى يكشف عن الجانب الخفى من حياته بلا حياء للرجل الزنجى بشكل يدل على انحطاطه . وانه لمما يدعو للسخرية ان هذا الرجل نفسه هو الذى يتهم الرجل الزنجى بفساد اخلاقياته ..

... وجاء موعد السيارة المتجهة الى بيلوكسى فركبت فى المؤخرة بين اخوانى الملونين ووصلت بيلوكسى فى وقت متأخر لأجدها قد اقفرت من الزنوج فقد لجأ كل منهم الى بيته .. فرحت ابحث عن مكان للنوم .. ولم أجد سوى كشك من الصفيح عبارة عن ثلاث حوائط فقط ، قضيت فيه ليلتى نصف متجمد من شدة البرد .. وعندما اصبح الصباح لجأت الى أول مقهى زنجى حيث تناولت افطارى ثم سرت أتسكع فى طريق السفر بالسيارات وكان الطريق يمتد أميالا بحذاء شاطىء البحر وقد كان هذا الشاطىء المميز برماله البيضاء الناعمة من أجمل الشواطىء التى رأيتها فى حياتى ، وقد عرفت من زنجى قابلنى أثناء تسكعى أن هذا الشاطىء صناعى وأن الرمال التى تغطيه ليست من صنع الطبيعة بل ان الانسان الملون قد حملها اليه . لكنهم قد حرموه من الاستمتاع بها رغم أن مصاريف صيانة هذه الشواطىء تحصل من ضرائب البنزين التى يدفعها الزنجى والأبيض على حد سواء .

وواصلت السير استوقف من وقت لآخر سيارة اطلب من قائدها اصطحابى جزءا من الطريق . وكم كانت دهشتى عندما تبينت ترحيب قائدى السيارات البيض بالتقاطى فى كل مرة .. لكننى سرعان ما تبينت السبب ، اذ انهم جميعا كانوا يرون فى الرجل الأسود جعبة لا تفرغ من التجارب والخبرة الجنسية ولهذا كانوا يسألوننى فى شئون الجنس وكيف أمارسه ، وعبثا حاولت اقناع الواحد منهم بعد الآخر أننا لسنا بدعا من البشر .. لكنهم جميعا لم يكونوا يقتنعون بما أقول بل انهم يؤكدون اعتقادهم الراسخ بأن الرجل الأسود عبارة عن جهاز جنسى لا يكل ولا يتعب ، وانه يتميز بعضو تذكير من حجم غير عادى .. وكان امامى فى كل مرة سبيلان لا ثالث لهما ، اما ان اسلم بما يقولون او اتوقع منهن ان يطلبوا منى النزول فى اقرب فرصة بدعوى انهم سيسيرون فى غير الاتجاه الذى سأسير فيه . وحدث أن اتهمنى أحدهم عندما انكرت عليه دعواه بقدرة الرجل الزنجى الجنسية الخارقة بأننى ناقص الرجولة . وقد بلغت تجربتى مع هؤلاء القوم مداها عندما طلب منى أحدهم ان اخلع ملابسى لكى يرى بنفسه حجم العضو التناسلى عندى .. بل ولقد سألنى آخر عما اذا لم تكن امراتى قد مارست الجنس مع رجل ابيض .. وهكذا كان يبلغ بى الحرج منتهاه فلا اتغلب على الموقف الا بالصمت المطبق ، والنظر الى مواقع اقدامى ، وانتظار كلمة الافراج وهى عادة لا تتغير : « **هنا عليك أن تواصل السير على قدميك .. فاننى سائر فى اتجاه غير اتجاهك** » .

... لكن الدنيا لا تخلو ابدا من بقية متواضعة من معانى الخير .. فقد التقطنى فى النهاية رجل ابيض خشن الملامح لكنه رقيق القلب . سألنى عن وجهتى فقلت له انى فى طريقى الى موبايل ثم وقف بى فى منعطف من الطريق .. وسألنى أن آتى معه الى كشك شطائر قائم عند المنعطف ان كنت جائعا ، فقلت له اننى لا استطيع ذلك لأننى رجل اسود . فقال لى : « تبا لهم .. سوف اذهب وآتى بالشطائر وناكلها سويا فى السيارة » وتساءلت فى نفسى ترى ما الذى يجعل هذا الرجل رقيقا معى الى هذه الدرجة .. فتبينت فى النهاية أن لدى هذا الرجل طفلا يحبه حبا جما الى درجة جنونية ، فقلت فى نفسى ، لعله الحب قد اضاء حياة الرجل .. اذ علمه حبه لابنه أن ينظر للدنيا كلها بعين الحب ، وتذكرت عندئذ قول احـــد القديسين **« عليك بالحب .. ثم افعل بعد هذا ما بدالك »** .

ووصلت الى موبايل ، وهناك تعرفت على رجل زنجى عجوز تطوع بتدبير امر مبيتى فى بيته المتواضع ، وكان لى معه حديث عنه وعن عائلته عرفت منه ان له ولدين يدرسان القانون فى جامعات الشمال ، يتمنى هو ألا يعودا أبدا الى موبايل مسقط راسهم ومهد صباهم . وعندما قلت له بدافع المجاملة انه لابد لهمـــا وان يعودا من وقت لآخر لرؤية ابيهم قال لى باخلاص وايمان :

ــ كلا .. انا لا أريد لهما أن يعودا على الاطلاق .. وهما لن يعودا الا لمواراة جسدى التراب ، فهذا خير لهما اذا كانا يرغبان فى حياة رغدة . وكثير من ابنائنا هنا فى الجنوب يفعلون ذلك .. ولعل هذا هو ما يفتت عائلات الزنوج .

٢١ نوفمبر ١٩٥٩ :

قضيت ثلاثة ايام فى موبايل اجول شوارعها بالنهار باحثا عن عمل ، واقابل مضيفى الأسود العجوز فى الغروب ونعود سويا الى بيته لقضاء الليل .. ومرة اخرى كان يضيع الجزء الأكبر من النهار فى البحث عن مطعم اتناول فيه وجبة من الطعام او مكان استطيع فيه الحصول على شربة ماء ، او استراحة استطيع فيها ان اقضى حاجة عرضت .. وعلمتنى التجربة أن أكثر من الأكل والشرب اذا توفرت الفرصة لذلك ، فما يدرينى لعل ذلك قد لا يتيسر اذا صرخت المعدة من الجوع بعد حين ، اوجف حلقى يعلن الظمأ بعد مسيرة قصيرة .

... اما محاولات البحث عن عمل يتناسب بعض الشيء مع امكانياتى . فقد باءت كلها بالفشل . ولقد تلقيت الاجابة صريحة فى احد المصانع عندما صرخ فى الرجل الابيض :

ـ لا تضع وقتك عبثا .. فنحن نقوم بتطهير الوظائف الحسنة منكم تدريجيا فى هذا المصنع . وعندما سألته كيف استطيع ان اكسب عيشى قال لى فى بساطة :

ـ هذه هى خلاصة الموضوع .. فاعلم اذن اننا سنبذل كل ما فى وسعنا كى نستنزل عليكم اللعنة الكبرى ونخرجكم جميعا من هذه الولاية .

... وواصلت سيرى فى شوارع مدينة موبايل ، ذلك الميناء الذى كنت اراه جميلا بنسيمه الهادىء ومناظره الحلوة .. لكننى اليوم لا اراه كذلك .. ويكفينى أن أرى عمال الميناء الملونين ، كل منهم يشد حزاما على منطقته وينوء بالاحمال الثقيلة فوق ظهره ، فتثيرنى مناظرهم وارى ان دواب الحمل احسن حالا منهم .. ويملؤنى الحزن والقنوط من معاملة البيض الذين يعملون فعلا على ابادة الجنس الأسود ، الا من تلك الفئة التى يتخذون منها دوابا رخيصة لرفع احمالهم .

٢٤ نوفمبر ١٩٥٩ :

قررت السفر الى مونتجمرى بولاية المسيسيبى ايضا ، ومرة اخرى لجأت الى طرق السفر بالسيارات ، ومرة اخرى تعرضت لصفاقات البيض الذين كانوا يلتقطوننى مسيرة جزء من الطريق . وقد تعرضت خلال سفرى بهذه الطريقة الى مدينة مونتجمرى لتجربة جديدة كادت تودى بحياتى . فقد ركبت الى جوار احدهم وكان يضع الى جواره بندقية رش ، فحدثتنى نفسى بالشر ، خاصة وانى كنت قد سمعت أن بعضهم يتخذ من صيد الملونين بنادق الرش هواية محببة له .. وأدرك الرجل حقيقة مشاعرى فقهقه ضاحكا وقال لى : « لا تخف .. فهذه البندقية لصيد الغزلان لا الملونين » . وعندما بدأ يدخل معى فى الحديث المتكرر ، حديث الجنس ، راح يسألنى عما اذا كانت زوجتى قد استمتعت برجل ابيض ، ويؤكد لى انه ما من فتاة زنجية الا وقد نالها رجل ابيض .. وعندما عبرت عن استنكارى لهذه الدعوى . قال بأنه يستأجر عددا كبيرا من فتيات الزنوج فى الأعمال المنزلية ، وانه ما من فتاة التحقت بالعمل عنده ، الا وقد تذوقها قبل أن يدفع لها بأول أجر تتقاضاه منه .. فلما قلت له فى استحياء انه لابد وان توجد من بين فتيات الزنوج من يرفضن ذلك .. زأر فى وجهى قائلا بأنهن لابد وان يفعلن ذلك جميعا والا لتضورن جوعا . ولما أن عبرت عن استيائى لهذه الحال قال لى فى تبجح :

ـ تبا لك .. كيف تستاء لهذا وقد كان احرى بك أن تعتبره صنيعا طيبا نؤديه لكم بادخال بعض دمائنا البيضاء فى عروق أطفالكم ؟!

.. وهنا بلغ فجور الرجل منتهاه .. ولذت انا بحبال الصمت أعبر بها عن امتعاضى الشديد ، فثارت ثائرة الرجل لعدم تجاوبى معه فى الحديث وراح يحذرنى من أن اكون من مثيرى الشغب فى الجنوب والا فسوف اقتل شر قتلة ويلقى بجثتى فى اى مستنقع .. وبعد ان افرغ فى اذنى ووجهى ما شاء من الفاظ التهديد والتحقير ، وقف بسيارته ودفع بى الى الخارج وقال :

ـ أعلم باننا سوف نظل نستاجركم فى أعمالنا .. واننا سوف ننال نساءكم والا ابدناكم عن آخركم .

... ولقد جاءنى الرد على هذا الافك بأسرع من رجع الصدى .. فقد التقطتنى من بعد ذلك سيارة قديمة عتيقة لرجل زنجى تزحف على الأرض .. وسرعان ما تفاهمنا سويا .. ولما كان الليل قد شمل الكون فقد سألته عن مكان للمبيت فعرض على المبيت فى بيته ، لانه لن يتيسر لى غير هذا على الاطلاق .. وافهمنى اننى سوف ابيت عنده على الأرض .. لأنهم لا يقتدرون على اقتناء الأسرة .. وكانت عائلة هذا الزنجى مكونة من زوجته وثلاثة اطفال .. وعجبت كيف يتأتى لهم أن يعيشوا بدخل عائلهم المحدود ، وسألته عما اذا كانت الزنجية تضطر لممارسة الجنس مع الوحوش البيض فى سبيل تعويض نقص الدخل فقال لى بكبرياء واباء :

ـ كلا يا سيدى .. فخير لنا أن ناكل الفاصوليا بلا لحم .. ونعيش فى سعادة من أن ناكلها باللحم ونحنى رؤوسنا للبيض .

... وفى الصباح واصلت السفر الى مونتجمرى فوصلت اليها آخر النهار . اتغنى بكلمات سمعتها من صوت زنجى حزين كان يغنى فى الليلة السابقة .. فيتجاوب صوته مع صمت الليل والكون بأكمله ينصت له اذ يقول فيما يقول : ـ

الليل ياتينى فى حنان
الليل زنجى حبيب
وجهه أسود مثل وجهى

٢٨ نوفمبر ١٩٥٩

قضيت ثلاثة ايام فى مدينة مونتجمرى عاصمة ولاية المسيسبى .. ولاحظت ان الزنوج فى هذه العاصمة يتبعون طريق المقاومة السلبية فى مناهضة التفرقة العنصرية ، ويقود هذه المقاومة بينهم مارتن لوثر كينج ، الذى تعتبر فلسفته بمثابة رجع الصدى لفلسفات غاندى .. فالصلوات والطرق السلمية المنظمة هى فلسفته فى مقاومة طغيان الرجل الأبيض .. وقد احسست فى هذا البلد بأن الزنوج والبيض يقفون ككتلتين متواجهتين من الأسمنت المسلح .. بينهما برميل من البارود .. ولا أستطيع أن اكتم خشيتى من ان تنطلق الشرارة الى هذا البرميل .. محدثة

الانفجار الرهيب .. ويومها ستكون فتنة لا تصيبن الذين ظلموا خاصـــة ، بل ستتعداها الى الشرفاء والابرياء جميعا .. فلقد ابتدأ بعض الزنوج نغمة جديدة تقول بامتياز الجنس الأسود .. وهذا من شأنه ان يزيد الهوة بين الجانبين .

١١ أبريل ١٩٦٠

عدت فى ديسمبر ٥٩ الى المجتمع الأبيض وتخلصت من آثار عقاقير التلوين والأشعة فوق البنفسجية .. وعرف الناس فى كل مكان بمغامرتى ، فقد قامت احدى الجرائد المحلية بنشرها على حلقات . ونشرت عنها مجلة تايم الأمريكية تقريرا كاملا مفصلا .. كما كانت المغامرة موضوعا لسلسلة من البرامج التليفزيونية المحلية الأمريكية والعالمية ، وقد أثارت مغـــامرتى ثائرة المتعصبين فى بلدتى « فورث ورث » فقاموا بتهديدى وتهديد أبى وأمى ، بل قاموا بتشكيل تمثال لى وقاموا بشنقه على أحد اعمدة التلغراف بالمدينة ، بعـــد أن لونوا وجهى باللونين الأبيض والأسود .. وحددوا يوم ١٥ يوليو ١٩٦٠ لانزال القصاص بى .. فقمت بترحيل أسرتى وترحيل ابى وأمى الى احدى مدن الشمال ، حيث التفرقة العنصرية اخف وطأة .. وقررت ان انتظر موعد القصاص لأرى ما يفعلون .

١٧ أغسطس ١٩٦٠

اجل الغوغاء موعد القصاص الى ١٥ أغسطس ١٩٦٠ . وكنت قد قررت الرحيل عن المدينة ، ولكننى فضلت تأجيل موعد الرحيل لأرى ماذا يفعل الغوغاء البيض فى ١٥ أغسطس ١٩٦٠ .. لكنهم لم يتعرضوا لى .

ورحلت عن المدينة التى عشت فيها اغلب عمرى وكتبت فيها أحسن اعمالى.. وكان معى فى السيارة ما يزيد على ستة آلاف رسالة تشجيع فيما عدا تسعة رسائل فيهـــا رســـائل توبيخ وتهديد ، وقد جاءنى عدد كبير من هذه الرســـائل من البيض الذين يعيشون فى اقاصى الجنوب حيث فوضوية التفرقة العنصرية تنشر اجنحتها فى كل مكان .. وقد اكدت لى هذه الرسائل أن رجل الشارع الجنوبى الأبيض لا يؤمن بالتفرقة العنصرية بل هو اكثر اعتدالا مما يبدو لجيرانه ، ولكنه يخشى بطش المتطرفين البيض اذا هو اعلن رأيه فى القضية بصراحة .